

بين الحرب والجغرافيا

الشرق الأوسط والحرب

في مقال سابق تناولنا علاقة الحرب بالجغرافيا (١) ، وخرجنا بما يفيد أن أحداث الحروب العالمية واتجاهاتها الأساسية وخطتها الكبرى لا تتأتى عفواً وإنما يلاحق بعضها بعضاً ، ويترتب بعضها على بعض . وهي في كل ذلك متأثرة بأبلغ التأثير بظروف الميدان الطبيعية ، وبالمواقع الجغرافية التي يجتذب بعضها المحارِبين بماله من قيمة ظاهرة ، وينجذب إلى بعضها الآخر المحاربون أنفسهم بما لهم من بصيرة نافذة يكشفون بها عما لهذه المواقع من قيمة كامنة أو محتملة ، كما خرجنا كذلك بأن من المواقع ذات القيمة الكبرى في الحروب العالمية موقع مصر وما يتصل بها من بلدان الشرق القريب . فقد كان لهذه المنطقة أثرها الكبير وقيمتها الخطيرة في كل نضال من أجل السيطرة العالمية ، ولا شك أنها ستحتفظ بقيمتها هذه مهما تغيرت أحداث المستقبل ، ومهما تطورت فنون الحرب في البر أو في البحر أو في الهواء .

ويعيننا في هذا المقال أن نتبع كيف أن الحرب العالمية الأخيرة لم تزد قيمة موقع مصر والشرق الأدنى كله — أو ما أصبح يعرف في السنوات الأخيرة « بالشرق الأوسط » (٢) — إلا وضوحاً ، وكيف أن أحداثها جاءت مرددة لما

(١) الكاتب المصري عدد ٧ (أبريل ١٩٤٦) .

(٢) يقصد الجغرافيون « بالشرق الأدنى » منطقة تشمل جنوب البلقان وآسيا الصغرى وغرب إيران والجزيرة العربية كلها وشمال شرق إفريقية . أما اصطلاح «الشرق الأوسط» فجديد نسبياً على الجغرافيا ، ولم يشع استعماله إلا إبّان هذه الحرب الأخيرة . وقد بدأ اصطلاحاً عسكرياً يشمل قيادة الحلفاء في شرق البحر المتوسط والشرق الأدنى إلى حدود الهند . والواقع أن اصطلاح «الشرق الأوسط» كما يفهمه العسكريون الآن لا يختلف كثيراً في مدلوله عن اصطلاح «الشرق الأدنى» كما يفهمه الجغرافيون من قبل ؛ وقد لا يغير كثيراً أن يستعمل أحد اللفظين في موضع الآخر ، ولو أن «الشرق الأوسط» يمتد قليلاً في مساحته إلى ما وراء حدود «الشرق الأدنى» .

تجاوب به التاريخ من قبل ، في فترات متقطعة ، منذ فتح الإسكندر باب الحروب العالمية ، التي امتد سعيها بين الشرق والغرب ، والتي لم تكد واحدة منها تشب حتى أصاب الشرق الأوسط منها نصيب يسير أو خطير ، بل حتى غدت هذه المنطقة المتوسطة مسرح النضال وهدف المتسابقين من أجل التحكم في المواصلات العالمية .

والذين يدرسون تاريخ الحروب في العهد الحديث يتفقون فيما بينهم على أن هذه الحرب التي انتهت في الصيف الماضي ، إنما بدأت في عام ١٩١٤ . وغاية ما هناك أن النضال الفعلي جاء في جولتين ، لم تكن الأولى منهما حاسمة ولا فاصلة ؛ فلم تنكسر جيوش ألمانيا في أرضها مثلاً ، ولم تنهزم هزيمة ساحقة ماحقة ، ولم يصب نظام الصناعة والإنتاج والمواصلات في تلك البلاد بمثل ما أصيب به من خراب إبان الجولة الثانية . . . لا بل إن أداة الحرب في جملتها ونواة الجيش الألماني ذاته تركت سليمة ، أو شبه سليمة ، بعد الجولة الأولى ؛ وقد احتفظت تلك النواة بروحها العسكري وتقاليدها ولم تسلم قيادتها بالهزيمة ، وإنما نسبتها إلى الثورة الداخلية في ألمانيا . وهكذا لم تنقض عشرون سنة على إعلان الهدنة (١) حتى نهض من كبا ، وحتى استطاع المغلوب أن يبدأ بالتحرش والوثوب من جديد .

ومهما قيل في أسباب هذه الحرب وما دفع المتحاربين إليها ، فقد كان الغرض الأول منها والمحرك الأساسي فيها ، إنما هو السعي إلى السيطرة العالمية والتحكم في مصائر الأمم ، وفيما تقوم عليه صلات الغرب بالشرق ، وصلات أهل البلاد القوية والمستعمرة بأهل البلدان الضعيفة والمستعمرة . ولذلك لم يكن بد من أن تمتد الحرب إلى الشرق الأوسط ؛ لأن الطبيعة قضت بأن يكون ذلك الإقليم باباً ينفذ منه الغرب إلى الشرق ، وجسراً تمتد من فوقه قوات أصحاب السيطرة إلى أولئك الذين قضت ظروفهم أن تكون أرضهم مطعماً للطامعين ، وأن تكون أرزاقهم ، بل جهودهم في الحياة ، مغنماً يقتتل من دونه الأقوياء .

(١) قد يكون من الطريف أن نلاحظ من الناحية الفنية الخالصة أن الجولة الأولى انتهت بإعلان الهدنة من الجانبين في عام ١٩١٨ ؛ على حين انتهت الجولة الثانية بإعلان انتهاء الحرب في أوروبا من جانب المنتصرين وحدهم في عام ١٩٤٥ .

وقد تجلب التسابق إلى التسلط على الشرق الأوسط في كل من الجولتين ولكننا قبل أن نعالج ذلك لا بد لنا من أن نلم بطرف مما يتصل بالقيمة الاستراتيجية التاريخية لبعض مناطق هذا الإقليم الهامة ومداخله الأساسية ؛ وذلك مما يعين على تفهم أهداف الحرب وخطتها في هذا القسم من العالم . وأول منطقة تلت نظرنا في هذا الإقليم هي مصر والركن الشمالي الشرقي من إفريقيا . فقد كان وادي النيل الأدنى ودلتاه على الدوام قاعدة عسكرية هامة يمكن الاستناد إليها والتوسع منها نحو قلب الشرق ؛ وقد تكرر ذلك في التاريخ أكثر من مرة . فن مصر توسع الفراغنة أيام إمبراطورية الدولة الحديثة ؛ ومنها توسع البطالسة بعد الإسكندر ؛ وإليها ارتكز جانب هام من قوة الرومان في توسعهم إلى شمال بلاد العرب ورأس الخليج الفارسي في أوائل القرن الثاني الميلادي ؛ وفيها قامت دول العرب والمسلمين ؛ ومنها اتسع سلطان صلاح الدين وأمثاله ممن عرفوا كيف يستغلون موقع أرض الزاوية وموارد تربة الكنانة ؛ وفيها تجدد الملك لمحمد على وامتد نفوذه إلى جهات مختلفة من الشرق القريب ، لولا ما كان من تألب الدول الكبرى عليه وعلى خلفائه . ثم إليها عادت الإمبراطورية البريطانية فارتكزت آخر الأمر ، لا لتؤمن مواصلاتها مع الشرق الهندي والبعيد فقط ، وإنما كذلك لتوسع سلطانها وتمد نفوذها إلى السودان أول الأمر ، ثم إلى شمال الشرق العربي إبان الجولة الأولى من الحرب العالمية وفي أعقابها ، ثم إلى برقة وطرابلس وحتى إلى بلاد اليونان وجزرها في هذه الجولة المنصرمة من الحرب . فكان الطبيعة قد أرادت أن تكون مصر وأن تبقى على مر الأيام ، مفتاحاً هاماً من مفاتيح الشرق الأوسط وأن يكون مرجع ذلك ومردده إلى موقعها الجغرافي من جهة ، وإلى مواردها الغنية من جهة أخرى .

وموقع آخر هام في الشرق الأوسط هو منطقة المضائق بين آسيا الصغرى والبلقان . وقد كانت قاعدة تحكّم منها الإغريق والروم الشرقيون في تجارة البحر الأسود ، ونشر منها البيزنطيون نفوذهم في ذلك البحر وعلى شواطئه ، كما احتفظوا منها بسطانهم في أراضي المشرق الروماني القديم . وعادت أهمية هذه القاعدة إلى الظهور في عهد الأتراك الذين امتد نفوذهم في كثير من جهات الشرق الآسيوي القريب وبلاد البلقان . وفي العهد الحديث ازدادت أهمية

المضايق بظهور روسيا وسعيها إلى الخروج من البحر الأسود إلى البحر المتوسط خروجا حراً لا تتحكم فيه إمبراطورية العثمانيين ولا غيرها من الدول الأوروبية البحرية التي قد تضغط على العثمانيين أو توحى إليهم بما يتبعونه من سياسة نحو الروس . فلما جاءت الحرب العالمية الأخيرة لم يكن بد من أن تبرز قيمة المضائق كمنطقة عسكرية ذات خطر ، وكنفذ للبحر الأسود من جهة ، وباب من أبواب الشرق الأوسط من جهة ثانية . وفعلا اتجهت السياسة الألمانية منذ عام ١٩١٤ بل قبل ذلك إلى القسطنطينية وما وراءها من أراضي الإمبراطورية العثمانية ، وأصبحت المضائق نفسها منطقة قتال فعلي شديد في موقعة غاليبولي وما يتصل بها ؛ واستمر التشاحن بين الدول من أجل تنظيم الإشراف على ممرات الماء خلال الفترة ما بين جولتى الحرب . ويخطئ من يعتقد أن حياد تركيا أثناء الجولة الثانية واستمساكها بموقفها المحايد وبسلطتها الشرعية في الإشراف على المضائق وتحصينها ، سيحول دون تشاحن الدول الكبرى من أجل هذه المنطقة العسكرية الهامة .

وفيما بين برزخ السويس ومضايق تركيا هناك منطقة أخرى يمكن أن تنفذ منها القوة إلى قلب الشرق الأوسط ، تلك هي مجموعة الجزر الواقعة في شرق البحر المتوسط وما يقابلها ويطل على ذلك البحر من شواطئ المشرق العربي في لبنان وسوريا وفلسطين . وقد كانت هذه المنطقة — لاسيما شواطئ لبنان — مجال اتصال واحتكاك في التجارة والثقافة خلال التاريخ ؛ كما كانت طريقا للتوغل السلمى وبعض التوغل المسلح إلى قلب الشرق . وعادت قيمتها فظهرت في الحرب العالمية الأخيرة بشطريها ، فاقتل في ميادينها الحلفاء والأتراك (ومن رآهم الألمان) أثناء الجولة الأولى وفي أعقابها ، كما اقتتل فيها البريطانيون وقوات المحور وقيشى في الجولة الثانية . بل جاءت فترة خلال هذه الجولة الأخيرة خيّل فيها أن المحور يستطيع أن يدور من اليونان وجزرها حول تركيا وأن يكيل ضربة شديدة يصيب بها موقف حلفاء الشرق في الصميم .

والمدخل الأخير للشرق الأوسط من ناحية الشمال هو طريق القوقاز وشمال إيران . وهذه منطقة كانت على الدوام تمثل نقطة اتصال الشرق القريب بداخلية آسيا الرعوية . فمن طريق إيران نفذت جيوش الإسكندر إلى تركستان ، ثم جيوش العرب إلى نفس الإقليم . وعن طريق ممر تفليس في القوقاز مرت قوافل

العرب واتصلت تجارتهم بجنوب روسيا وأرض بولندة القديمة في القرون الوسطى . وعن طريق تركستان وقزوين جاءت جحافل المغول والتتار إلى شمال إيران ، ثم إلى أرض الخلافة العباسية في بغداد عام ١٢٥٨ . وعبر شمال إيران وكردستان مرة السلاجقة ثم الأتراك العثمانيون إلى آسيا الصغرى فالقسطنطينية والبلقان . ومع أن التشاحن خف في هذا الركن الشمالي الشرقي من الشرق الأوسط فترة من الزمن فإنه تجدد في أواخر القرن الماضي وخلال القرن الحاضر ، عند ما ظهرت قوة روسيا بشكلها القيصرى أول الأمر ، ثم بشكلها السوفياتى بعد ذلك ، وسعت إلى أن يكون لها منفذ نحو البحار الدفيئة في خليج فارس ، ثم استمرت المسمى في هذا الاتجاه آخر الأمر ، عند ما رأت أن الطريق إلى تلك البحار غنى بموارد الزيت من جهة ، كما أنه يؤدي إلى قلب العالم العربى وإلى البحر المتوسط من جهة أخرى .

وإلى الجنوب من الشرق الأوسط هناك مدخلان أو مخرجان لذلك الإقليم : أحدهما يمتد مع الخليج الفارسى ، والآخر يمتد مع البحر الأحمر . وكلاهما يبدأ في قلب الشرق الأوسط وينتهى إلى المحيط الهندى وما وراءه من بلاد الشرق . وقد كان التسلط على هذين الذراعين من البحر والسواحل المحيطة بهما غاية كل عسكرى يريد السيطرة على الشرق ومسالكه ، منذ بدأ الاتصال بين الشرق والغرب ، وصارت للمسالك البحرية قيمتها في ذلك الاتصال فقد سعى الفرس إلى ذلك وتسلطوا في أوقات مختلفة على خليجهم بشاطئيه ، وعلى طرق البحر الأحمر في الشمال والجنوب . وسعى الرومان إلى ذلك أيضاً فوضعوا أيديهم على رأس البحر الأحمر في السويس والعقبة ، وعلى رأس الخليج الفارسى في ميناء أبلة القديم في شط العرب . وأدرك العرب المسلمون قيمة هذين الطريقين ، فأنشأوا فيهما الموانئ ، وأحكوا السيطرة على طرق البحار خلال فترات متقطعة من العهد الإسلامى . حتى إذا ما جاء العهد الحديث ظهر التسابق بين الدول الطامعة في الشرق والمنتكلبة على السيطرة على مسالكه ومداخله ؛ فسعت كل منها إلى أن تمكن لنفسها من أحد هذين الطريقين البحريين ، ومن المسالك البرية المؤدية إليه والمشفرة عليه . فإلى خليج فارس سعت روسيا جهد طاقتها ، ولكن وقتت في سبيلها بريطانيا ، التي جاءت الخليج من طريق الهند أول الأمر ، فبسطت سلطانها على عُمان والبحرين والكويت ، ونشرت نفوذها في

الشرق الأوسط والحرب

أراضي إيران وشواطئها الجنوبية ، ثم جاءت إلى نفس الخليج من بعد ذلك وأثناء حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ عن طريق الهند البحري إلى العراق الأدنى ، وكذلك من طريق الشرق العربي الشمالي ، بعد أن كافت الخطر الألماني الذي سعى مع الأتراك إلى العراق . وأما طريق البحر الأحمر فقد سعت إليه بريطانيا ، فوطدت أقدامها في مصر والسودان على شواطئه الشمالية والغربية ، وفي عدن وجزيرة يريم وساحل الصومال في الجنوب . كما سعت إليه فرنسا في جيبوتي ، وإيطاليا في إرترية . واستمر الكفاح بين هذه الدول مكشوفاً أو مستتراً حتى ظهرت مشكلة الحبشة وحربها مع إيطاليا ، فكان ذلك نذيراً بما انتهى إليه الأمر من نضال مسلح على بعض سواحل هذا البحر خلال الجولة الأخيرة من الحرب العالمية .

وهكذا نجد في هذا الشرق الأدنى كما يسميه الجغرافيون ، أو الشرق الأوسط كما يسميه العسكريون المحدثون ، منطقة كثيرة المداخل ، متعددة المنافذ ، تطل على بحار الشمال وبحار الجنوب ، وتتصل باليابس في الشرق والغرب . فلم يكن بد من أن تتأثر بالحرب أتي جاءت ، ومن أن يحاول العسكريون والمحاربون أن ينفذوا إلى قلبها من أي طريق . بل لم يكن بد من أن يمتد إلى هذه المنطقة هب الحرب وأن يكونها سعيها ، مهما حاولت أن تجنب نفسها موارد التهلكة ومصارع السوء ، أو أن تتقي أهوال الحرب والكفاح المباشر . فهي طرف في كل حرب عالمية ، أرادت أو لم ترد ؛ والشر يسعى إليها عن كل طريق ، ويأخذها من كل جانب ؛ لا يحوله عنها محول ، ولا يرد عنها راد .

بل هكذا قضت الطبيعة أن يكون الشرق الأدنى أو الأوسط ميداناً من ميادين التسابق والمساومة في اقتسام مناطق النفوذ بين كبريات الدول ، حتى قبل أن يبدأ النضال المسلح في عام ١٩١٤ . ففي أوائل هذا القرن كان حلفاء الغرب وأنصارهم في روسيا قد حددوا مناطق نفوذ كل منهم في الشرق الأوسط ومنافذه ؛ فأطلقت فرنسا يد بريطانيا في مصر وقناة السويس باتفاقية ١٩٠٤ ؛ واقتسمت بريطانيا وروسيا مناطق النفوذ في الأراضي الفارسية على الجناح الشرقي لهذه المنطقة باتفاقية ١٩٠٧ . ومع ذلك فعند ما أعلنت الحرب كانت تركيا العثمانية لا تزال سيدة الجانب الأكبر من قلب هذا الشرق ، ما بين جنوب

شرق البلقان وبحر العرب ؛ فكان طبيعياً أن تحاول ألمانيا أن تنفذ إلى الشرق عن طريق أرض الخلافة ، فهدت للوصول إلى بغداد في طريقها إلى خليج فارس وبعثت بعملاتها ثم بجيوش حلفائها الترك إلى الشام وفلسطين وسينا وقناة السويس على باب مصر الشرقي في عام ١٩١٥ ، وكان غرضها من كل ذلك أن تقطع طريق الهند على بريطانيا ، وأن تمنع حلفاء الغرب في الوقت ذاته من أن يحاولوا تطويقها بالالتفاف حول أراضي تركيا أو شرق طريقهم والاتصال بالقوات الروسية في بعض جهات آسيا الغربية . وكانت بريطانيا قبل ذلك وخلال ذلك قد تفاهت مبدئياً مع روسيا (١٩١٢ - ١٩١٣ ثم ١٩١٥) على أن تكون القسطنطينية من نصيب الروس بعد الحرب ؛ فكان من الطبيعي أن يُعقد اتفاق سرىٍّ مقابل للدفاع المشترك بين الترك والألمان ؛ واستطاعت ألمانيا بفضل ذلك أن توطد أقدامها في منطقة المضائق . فأذن ذلك بدخول الشرق الأدنى كله في نطاق الحرب ، حتى قبل أن تعلن بصفة رسمية بين العثمانيين والحلفاء .

وفي مطلع الحرب كانت قوة حلفاء الغرب مركزة على الخصوص في مصر ، التي أعلنت عليها الحماية البريطانية ، والتي ما لبثت بريطانيا أن اتخذت منها بالتدريج تلك القاعدة التي طالما استطاع حكامها وسادتها أن يسخرها موارد ، وأن ينشروا منها نفوذهم ويمدوا سلطانهم في كل اتجاه . وفعلاً بدأ البريطانيون ينظمون شئونهم في مصر وإن كانوا كما دعتهم في أمثال هذه المناسبة ، قد بدءوا متأخرين بعض الشيء ، غير مستعدين تمام الاستعداد ، وإنما كانوا معتمدين على مقدرتهم التقليدية على تكييف الأمور ومواجهة الأزمات أولاً بأول . لذلك أعلنوا الأحكام العرفية في مصر في اليوم الثاني من نوفمبر سنة ١٩١٤ ، وأعلنوا معها أنهم يتحملون وحدهم تبعات الحرب ، وأنهم لن يفرضوا على مصر أن تساهم فيها بشيء ؛ ومع ذلك فلم تمض ثلاثة أيام حتى صدرت أوامره إلى المدفعية المصرية أن تشخص إلى القناة لتدافع عنها ! ولعلنا لا نزال نذكر ما قامت به مصر في عام ١٩١٥ من رد غزوة الأتراك والألمان ، التي جاءت عن طريق شبه جزيرة سيناء ، والتي استطاعت بعض طلائعها أن تعبر القناة . والحق أن هذا كان أول محك لما تستطيع مصر أن تؤديه في حرب كهذه . وليس يضير مصر ألا تكون بريطانيا قد اعترفت إذ ذاك أو بعد ذلك بما أدته مصر لنفسها وللحلفاء ؛ فقد ينصف التاريخ أولئك الأبطال الذين

الشرق الأوسط والحرب

دافعوا عن القناة يوماً ما . ولو وقف البريطانيون وحدهم أمام الغزاة لما ثبتوا لهم ولما ردوهم ، بل لوصل الأتراك والألمان — في رأى كثير من ثقات الحرب — إلى القاهرة في أيام ؛ وكان لذلك ، في أغلب الظن ، من العواقب ما يتغير معه وجه التاريخ .

ولكن هذه الصدمة الأولى نهبت بريطانيا إلى خطورة الأمر في الشرق ، كما نهبتها إلى أهمية مصر كقاعدة عسكرية لتجمع قوات البر والبحر على السواء . وكان طبيعياً أن تستغل بريطانيا ناحية البحر أول الأمر ، وهى الدولة البحرية الأولى ، فالتحذت عدتها واستخدمت مرفئ مصر ومرافقها كقاعدة لتجمع بحرى هائل ، فيما عرف بحملة البحر المتوسط Mediterranean Expeditionary Force التى انطلقت من مصر في عام ١٩١٥ نحو غاليپولى ؛ وكانت غايتها قطع الطريق على الألمان وفتحه إلى الروس . ولكن عوامل مختلفة أدت إلى إخفاق الحملة التى كان ينقصها عنصر المفاجأة . وكما أخفقت جيوش الترك والألمان عند قناة السويس لأنها كانت على مسافة بعيدة من قواعدهما عند ما ثبت لها المدافعون وردوها على أعقابها ؛ كذلك أخفقت أساطيل الحلفاء فى الدردنيل لأنها كانت بعيدة عن معقلها فى مصر ولا تستند إلى شئ فى الطريق ، فثبت لها الأتراك وبددوا حملتها تبديداً .

ولكن البريطانيين كانوا فى الوقت ذاته يوالون تنظيم موارد مصر ، ويتابعون إعدادها لأن تكون أداة فعالة فى الحرب ، وإن لم يعترفوا بمركزها كشريكة فيها . حتى إذا ما جاءت المرحلة الثالثة من مراحل الحرب فى الشرق (بعد مرحلتى الدفاع عن القناة والهجوم على غاليپولى) برزت أهمية مصر وتجلت مساهمتها الفعالة فى صورة جديدة ؛ فتألفت فى عامى ١٩١٦ ، ١٩١٧ القوة التى عرفت باسم قوة الحملة المصرية Egyptian Expeditionary Force ؛ وتحولت فرق العمال المصرية التى أعدت من أجل غاليپولى إلى حدود مصر الشرقية ، ثم إلى فلسطين والشام وأرض العراق الأعلى ؛ وارتفع رقم المشتركين فى الحملة من المصريين إلى حوالى ١٥٠.٠٠٠ من الرجال يعملون بعقود لمدة ستة أشهر ، أى بمعدل ثلثائة ألف رجل يشتركون فى الحرب خلال العام . وفضلا عن ذلك فقد سخرت بريطانيا موارد مصر من الأرزاق فى الحبوب والدواب والأنعام ، جمعت كلها برضا من حكومة مصر ، ومعاونة فعالة منها ، لتغذية الجيش والحملة

نحو الشرق ؛ مع أن الأمر في هذه الحملة كان قد انقلب من مجرد الدفاع عن مصر إلى التوسع والفتح في أملاك الإمبراطورية العثمانية والخلافة الإسلامية ؛ وهنا تجلّى استغلال بريطانيا لمصر وتسخيرها موارد هائل من الرجال والأموال ، إلى جانب استغلالها موقعها الجغرافي . ومن سخريّة القدر أن تكون بريطانيا قد بدأت باستخدام مصر وتسخيرها في فتح الشرق بحجة تحريره من الأتراك ، فلما استتب لها الأمر فيه وتمكنت قواتها منه ، لم تزدها مصالحتها الجديدة في الشرق إلا استمساكاً بهذه الأداة ، وإلا تشبهاً بهذه القاعدة ؛ لعلها أن تفيد مرة أخرى ، وفي يوم قريب أو بعيد ، من هذا البلد الغني ، ذى الموارد الحاضرة وذى الموقع الجغرافي الفريد . وقد كان !

ولكن مصر والدردنيل لم يكونا المدخلين الوحيدين اللذين تسربّ عنهما لهب الحرب إلى الشرق الأدنى ؛ وإنما نشطت بريطانيا كذلك في بحر العرب وفي خليج فارس ، وأرسلت الإمبراطورية حملتها على العراق ، فاحتلت البصرة ، ثم دخلت بغداد في عام ١٩١٧ ، وتقدمت منها في اتجاه الموصل والجزيرة العليا ؛ كما واصلت قوات بريطانيا زحفها من فلسطين إلى الشام و صوب العراق الأعلى . وفي أعقاب الحرب تعقد الموقف في الشام بتسابق بريطانيا وفرنسا إلى اقتسام مناطق الاحتلال . وبتزول قوات فرنسا في أرض المشرق ، ثم اتفاق الدولتين على اقتسام غنائم الانتداب في مؤتمر الصلح وعصبة الأمم . كما زاد الموقف تعقداً بمحاولة إيطاليا تحقيق أطماعها في جنوب غرب الأناضول ؛ تلك الأطماع التي لوّح لها بها الحلفاء في معاهدة لندن السرية التي دخلت بمقتضاها إيطاليا الحرب في عام ١٩١٥ ؛ ولكن هذه الدولة كانت أضعف من أن تحتفظ بقواتها أو بنفوذها في أراضي تركيا ، رغم أنها كانت تحتل جزر الدوديكانيز منذ عام ١٩١٢ . كذلك انتهت محاولات اليونان ، ومن ورائهم حلفاء الغرب ، في التسلط على أزمير ، باندحارهم أمام قوات الغازي مصطفى كمال على نحو ما هو معروف .

على أن المهم من كل هذا أن لهب الحرب قد امتد إلى الشرق الأوسط من أكثر من جهة واحدة ؛ وكان ذلك أمراً طبيعياً إذا نحن راعينا كثرة مداخيل هذا الإقليم وما أخذته وأهميته الفريدة في صلات الغرب بالشرق . بل كان طبيعياً أيضاً أن يتأثر هذا الإقليم وسكانه بالحرب وأحداثها وتأثيرها بما قد يزيد على تأثير غيره من أقاليم الأرض وشعوبها . فقد أطمعت الحرب الظافرين في هذا

الإقليم ومراكزه العسكرية ، وموارده التي لا ينقصها غير حسن الاستغلال . وكان ذلك في وقت زالت فيه سلطة الأتراك ، ودال سلطان الخلافة أو كاد ؛ فتدخلت بريطانيا ومعها فرنسا فاقسمتا قلب الشرق الأوسط بما جعل للأولى نصيب الأسد وللثانية نصيب النحر . ولولا انقلاب الأحوال في روسيا ، وظهور ثورة البلاشفة ، وما صاحب ذلك من انكماش تلك الدولة ثم انطوائها على نفسها ، لكان للروس مطمع في جانب من الغنيمة . كذلك لولا تقاعس أمريكا وتخوفها من الشرق ومشكلات الشرق لكانت تلك الدولة شريكا في بعض أسلاب إمبراطورية العثمانيين .

وانقضت الفترة ما بين جولتي الحرب في قلقلة واضطراب ما كان يستقر معهما الشرق الأوسط وأهله على شيء . وقد أغرى اختفاء ألمانيا المؤقت وراء الأفق كلاً من بريطانيا وفرنسا ، فلم تنتبها إلى ما تقتضى به الحكمة من إنجاز العهود وإنصاف أهل هذا الإقليم بعد جهادهم في سبيل هزيمة الأتراك ، بل مضتا أول الأمر في سياسة أقل ما يقال فيها إنها لم تراعى ما استأهله فريق من شعوب الشرق الأدنى من حرية تقرير المصير ، ولو في ميدان الحكم الذاتي الصحيح . ولم تكن تلك السياسة مما يمكن أن يدوم أو أن يؤدي إلى الاستقرار . وقد جربت بريطانيا بصفة خاصة أن تجمع بين المتناقضات في سياستها مع مصر إذ منحتها الاستقلال في ظل الاحتلال ، ومع فلسطين إذ جعلتها للعرب والصهيونيين في آن واحد . وطغت فرنسا في سوريا ولبنان ، فتلاعبت بالعرب ، وشوهت وحدة بلادهم ، دون رقيب أو محاسب . ولكن انفراد بريطانيا وفرنسا بشئون الشرق لم يكن إلى أجل غير مكتوب ؛ وظهور ألمانيا أو الشبح الألماني ، من وراء الأفق مرة ثانية لم يكن إلا مسألة زمن ؛ كما أن استئناف الكفاح بين الجبابرة من أجل الشرق كان أمراً مفروغاً منه عند من يعرفون بواطن الأمور ، وكانت ساعته آتية لا ريب فيها . ومن أجل ذلك لم تجد بريطانيا وفرنسا بدءاً من أن تحورا سياستهما نحو الشرق . وكانت الأولى بحكم تجاربتها ومصالحها المتشابكة ، أسبق في إدراك ضرورة ذلك من الثانية ؛ فلم تلبث أن فرغت من بعض مشكلاتها مع العراق ، ثم عقدت معاهدتها المعروفة مع مصر ، والتي تعتبر ولا ريب أخطر عمل سياسي أنجزته بريطانيا في الشرق ؛ إذ ضمنت به سلامة مواصلاتها ، كما ضمنت استقرار الأمور واستغلال موارد هذه القاعدة

وموقعها الجغرافي بما لا يقل عما حدث في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ . كذلك عملت بريطانيا على تهدئة الحال بالنسبة للعرب في فلسطين ، فأصدرت كتابها الأبيض بتحديد هجرة اليهود في عام ١٩٣٩ . وفي الوقت نفسه اضطرت فرنسا إلى أن تسلك بعض ما سلكته بريطانيا ، فحاولت - ولو في شيء من المداورة والتردد - أن تنظم علاقاتها مع سوريا ولبنان على أساس جديد من بعض الوجوه . وهكذا ترتب على هذه الخطوات من جانب بريطانيا وفرنسا أن لاحت الحرب اهتزازية ، والشرق الأوسط عند مفترق الطرق ... قد بدأ يستشف طريقه ويتلمس سبيله إلى حياة الاستقرار أو ما يقرب منه ؛ ولكنه مع ذلك يشفق من المستقبل ولا يطمئن إليه بأكثر مما تسمح به تجاربه خلال ربع قرن كامل . ولكن التاريخ أعاد نفسه في الجولة الثانية من الحرب العالمية ، وإن كانت تفاصيل الكفاح وبعض ميادينه قد تغيرت نظراً لتغير ظروف المحاربين . والشئ المهم أن الهدف الأول من الحرب بقي كما كان ، وهو السيطرة العالمية والتحكم في اتصالات الغرب بالشرق . ولذلك لم يكن بد من أن يصبح الشرق الأوسط طرفاً في الحرب منذ البداية . وقد سعت ألمانيا في هذه المرة إلى قلب الشرق كما سعت في المرة الأولى ؛ ولكن تغير الأحوال جعلها لا تركز في طريق واحد كما فعلت في الجولة الأولى ، عندما اتخذت طريق المضائق دون سواه ؛ فقد وقفت تركيا الجمهورية على الحياد في هذه المرة ، ولم تسمح باستخدام مضائقها في أغراض الحرب لأي فريق من المتحاربين . وترتب على ذلك أن سعت ألمانيا ، أو اضطرت إلى السعي ، نحو الشرق الأوسط من غير هذا الطريق ؛ واختارت بالفعل طرقاً ثلاثة : أولها طريق القوقاز ، وكان وعراً صعباً ، ووقفت من دونه جحافل الروس . وثانيها طريق البلقان واليونان والدوديكانيز إلى سواحل المشرق والشام ، وقد سعت فيه ألمانيا إلى منتصفه ، ولكنها لم تسر حتى النهاية ، فاستطاع الحلفاء أن يزحفوا إلى سوريا ولبنان وأن يطردوا قوات فيشي وعملاء المحور منهما ، كما لم تجدد ثورة الكيلاني في العراق لأنها كانت حركة منقطعة عن غيرها ، وحلقة لا تتصل بسلسلة الهجوم المحوري . ويظهر أن الألمان لحسن الحظ لم يقدرُوا أهمية هذا المدخل من مداخل الشرق الأوسط ؛ ولو قد فعلوا ذلك ، وحوّلوا جانباً من قواتهم الضائعة في روسيا إلى البلقان واليونان فسواحل المشرق كما فعلوا في احتلال كريت مثلاً ، لأصبحت لهم قاعدة

راسخة في قلب آسيا الغربية ، ولتغير مجرى الحرب في هذا القسم من العالم . كذلك حاول الألمان أن يأخذوا الشرق من مدخل ثالث هو طريق طرابلس وبرقة ومصر ؛ ولكنهم أخطأوا هنا أيضاً فجاءوا متأخرين . ويظهر أن تحالفهم مع الإيطاليين كان عليهم أكثر مما كان لهم ؛ فإن إيطاليا لم تكن فيما يظهر مخلصه في الحرب ولا مقبلة على التضحية من أجل النصر المشترك ؛ فهي مثلاً لم تجاذف بأسطوها في تمكين الصلة بين قاعدة المحور في طرابلس ومواطن التموين في إيطاليا وألمانيا . وعلى كل حال فقد تقدمت جيوش المحور نحو مصر ثم تقهقرت أكثر من مرة ، حتى إذا ما جاءت الواقعة الفاصلة في العامين كان النصر حليف الجيش الذي استند إلى مصر . . . تلك القاعدة العظيمة التي أدت للجيش الثامن ومكنت له من مواردها وخيراتها ومرافقها ومواصلاتها وجهود أبنائها وإخلاصهم في العمل ، بما كفل له الأمان ساعة الخوف ، والثقة ساعة الاقدام . . . وهكذا ارتد « جيش النيل » وتراجع ، ولكن إلى غير انهيار ؛ حتى إذا ما دقت الساعة تقدّم منتصراً حتى جاوز إفريقية وبلغ قلب إيطاليا بل وشمالها آخر الأمر .

وفي هذا الكفاح الطويل بين المحور والحلفاء في الجناح الغربي من الشرق الأوسط لم تتجل قيمة مصر في الدفاع عن نفسها فقط ، وإنما برزت كذلك قيمتها كقاعدة للتموين والإعداد ، ومركز للتوسع والزحف وإنفاذ الحملات بالبر والبحر والهواء في كل اتجاه . ويكفي أن نذكر هنا أن قوات الحلفاء توسعت من مصر (والسودان) نحو إرترية وشمال الحبشة ، ونحو اليونان وجنوب البلقان ، ونحو فلسطين وسوريا ولبنان ، ثم نحو برقة وطرابلس وتونس والميدان الجنوبي في أوروبا . وقد تجمعت للحلفاء في مصر جيوش من خمسة وعشرين قطراً وشعباً أو نحو ذلك ، حاربوا جميعاً في أرض مصر ، أو اتخذوها قاعدة لهم إبان الحرب . ولا يكاد التاريخ يذكر أن تجمعت جيوش من مثل هذا العدد الكبير من القوميات والشعوب في بلد من البلدان خلال تاريخ الحروب الطويل .

أما في الجناح الشرقي من الميدان فكانت روسيا في أبلغ الحاجة إلى أن يسند ظهرها ويشد أزرها في جبهة القوقاز والسهل الروسي الجنوبي . ولم يكن هناك طريق يمكن أن يبلغها عنه المدد غير طريق الخليج الفارسي وأرض إيران

وكان أن احتل الحلفاء تلك البلاد واستغلوا مواردها وطرق مواصلاتها بما في ذلك الطريق الحديدي الذي أمكله الشاه بين خليج فارس وبحر قزوين ؛ وكانما أنجز ذلك المشروع لينتفع به المحاربون من غير أهل البلاد قبل أنه ينتفع به أبناء إيران . والغريب — أو لعله ليس غريباً — أن إيران قد قاومت وستقاسى في مقبل الأيام من جراء حاجة المحاربين إليها مثل ما قاومت مصر وغيرها من بلدان الشرق إبان الجولتين .

ولكن الحق أن هذه الحرب لم تكن حرب الجبارة وحدهم ، وإنما شارك فيها واكتوى بنارها أبناء الشرق الأوسط وأمه ؛ وكانت مشاركتهم فيها بمواردهم وأرزاقهم بل أرواحهم . وإذا نحن أخذنا مصر على سبيل المثال فقد ينفعنا أن نذكر أنها أعلنت على نفسها الأحكام العرفية في مطلع الحرب ، وعلى نحو لم تعلنه بريطانيا ذاتها في بلادها ؛ وأنها قطعت علاقاتها بالمحور وبلدانه ، وأصابها من وراء ذلك غرم كثير في التجارة والتبادل انتهى إلى أكثر من الحرمان ؛ بل إنها قلبت نظامها الاقتصادي والإنتاجي كله لتلائم بينه وبين مقتضيات الظروف واحتياجات الحلفاء والجيران في الشرق ؛ كما وضعت مواصلاتها كلها تحت تصرف الحلفاء من انجليز وغير انجليز ، وعلى نحو انطوى على تسخير نظام المواصلات كله من أجل الحرب ؛ فضلاً عن مساهمة جيشها مساهمة فعالة في الدفاع عن القناة والمدن الكبرى ضد الغارات الجوية ، وفي حراسة مرافق البلاد ؛ كما جندت مصر حوالى ربع مليون من أبنائها للعمل في المصانع الحربية والمعسكرات ، وخصصت حوالى نصف مليون من العمال الزراعيين لإنتاج المحاصيل والخضر التي تحتاج إليها الجيوش ؛ واكتوت بويلات الحرب الشديدة في الغارات وحوادث الطرق والأمراض الوافدة ، ومنها الملاريا الخبيثة التي حصدت حوالى الستين ألفاً من بلاشك من ضحايا الحرب ، والحمى الراجعة التي لا تزال البلاد تعاني بلاءها هذه الأيام . . . إلى غير ذلك من الآفات الاجتماعية ومشكلات البطالة وغيرها بعد الحرب ؛ وهي كلها تدخل ضمن تضحيات مصر في الحرب ومن أجل النصر ، مما يكشف عن أن محاولة « تجنيب مصر ويلات الحرب » لم تكن إلا أمنية بعيدة المنال ، بل مستحيلة من الناحية العملية ؛ فهي وإن كانت قد جنبت مصر كثيراً من « ويلات القتال المباشر » فإنها لم تجنبها ويلات الحرب بمعناها المعروف . ومثل هذا يصدق ولو إلى حد ما ، على غير

مصر من بلدان الشرق فيما عدا تركيا . وليس كثيراً أن نسجل أنه لولا هذه المساهمات من جانب أهل هذا الإقليم ما كان ذلك النصر الذي انتهت إليه الحرب في جولتها الثانية .

فوق ما تقدم كله فإن الشيء الذي لا شك فيه أن أعقاب هذه الحرب وتناجها لن تقف عند ما أصاب سكان الشرق إبان استعار القتال ، بل هي ستعدي ذلك إلى المستقبل القريب ، وقد تبلغ المستقبل البعيد . وإذا كان صحيحاً أن النضال بين ألمانيا والحلفاء الديمقراطيين في الشرق الأوسط — ذلك النضال الذي بدأ في مطلع القرن الحالى — قد انتهى الآن بانكسار أحد الفريقين انكساراً يبدو كأن لا قيام له من بعده إلى حين بعيد ، فلا شك أن الأفق يلوّح بنضال آخر لن يقل عنه شدة وقسوة ، ويخشى — إن هو وقع ، لا قدر الله — أن يكون بين قوتين عظيمتين ، تتمكن إحداها من الشرق وترفض في ربوعه ، وتقف الأخرى على أحد منافذه البرية . وسيزيد من شدة هذا النضال أنه لن يكون من أجل المواصلات والقواعد العسكرية كما كان النضال السابق ، وإنما سيكون فوق ذلك من أجل موارد البترول وغيرها في هذا الشرق الوسيط .

ومن الخير لهاتين القوتين العظيمتين ولأهل هذا الإقليم بل للانسانية جمعاء أن يواجه العالم هذا الخطر الكامن قبل أن يبرز ويستفحل ، وأن يعمل على تلافى أسبابه قبل أن تقع الواقعة . . . ومن يدرى ! هل إلى تحقيق هذه الأمانة السعيدة من سبيل !

أما بعد ، فإن الله يداول الأيام بين الناس . وكثيراً ما جعل الله — جلت قدرته ودقت حكمته — من الحروب سبباً لهذا التداول . والشرق الوسيط الذى نحن بصدده الآن إقليم قديم عريق في القدم ؛ قد تداولت عليه أمم وشعوب ، ومر به من الحروب ما غير وجه التاريخ أكثر من مرة . ولكن حرباً واحدة من الحروب القديمة قد تستحق أن يذكرها أهل هذا الشرق — لاسيما الجانب العربى منه — في حاضرهم ، وفيما هم مقبلون عليه من أيام . ذلك أنه أتى حين من الدهر اقتتل فيه الفرس والروم من أجل السيطرة على هذا الشرق ، وكانت هناك أمة غافلة ، أو شبه غافلة ، كان جبايرة الساعة يعتقدون إذ ذاك أنها لم تخلق ليكون لها في العير أو في النفير ؛ بل إنهم حاولوا

تسخيرها وتوجيه أقدارها بما يلائم مصالحهم هم . وترددت هذه الأمة العربية أول الأمر بين الفرس والروم ، ثم مالت نحو هؤلاء الآخرين في مطلع العهد الإسلامي بحكم أنهم من أهل الكتاب على كل حال . ونزلت في ذلك الآية الكريمة : « ألم . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفغلبون في بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » . ولكن هؤلاء الأعراب ما لبثوا أن أدركوا أنه أولى بهم أن يكونوا لله ولا أنفسهم وللإنسانية قبل أن يكونوا للفرس أو للروم . وقد أذن الله أن يتول إليهم الأمر في الشرق بعد أن اقتتل الفرس والروم اقتتال فناء ، وبعد أن حطم الشر الشر ، ودوخ الشيطان الشيطان . والآن يقف أهل الشرق الأوسط موقفاً لا يمثل ذلك الموقف القديم من جميع الوجوه ، ولكنه منه على شيء من الشبه ولو من بعيد . وليس أدل على ذلك من أن هذا الشرق في قرارة نفسه قلق على المستقبل حائر في أمره ، يخشى أهله أن ينحرفوا أو أن يميلوا كل الميل فتأخذهم الريح أو يجرفهم التيار . وقد ينفعهم في هذا الموقف أن يستجمعوا ثقتهم بأنفسهم ، وأن يذكروا ما يفرضه عليهم موقعهم الجغرافي نحو أنفسهم ونحو الإنسانية جمعاء ، وبذلك لا تميل بهم الريح ولا تتلاعب بهم الأهواء . بل قد ينفعهم أن يذكروا ما انتهى إليه الأمر مع أولئك الأعراب القدماء الذين ذكروا أنفسهم فكانت لهم العاقبة ، ولو بعد حين .

قد يبدو هذا الكلام وهماً أو خيالاً ؛ ولكن هذا الشرق الأوسط كان في تاريخه الطويل مهد المعجزات ، وسيتبقى كذلك مابقي التاريخ . والله سبحانه وتعالى قادر ، في يوم قريب أو بعيد ، على أن يخرج الواقع من الوهم ، وعلى أن يخرج الحقيقة من الخيال . وصدق الله العظيم ، وهو القائل في معرض الكلام عن اقتتال الجبابرة من أجل هذا الشرق ، اقتتالا ما كانوا ليقدموا عليه لو أنهم أدركوا عاقبته : « لله الأمر من قبل ومن بعد . . . وهو العزيز الرحيم » .